

97732 - حكم القومية العربية ، وحكم الانتقاص من النبي صلى الله عليه وسلم

السؤال

هل يرتد من سئل "أيهما أفضل عندك نبيك صلى الله عليه وسلم أم لغتك؟" فأجاب: "لغتي"!؟ وهل يرتد إن قال ذلك مازحا أو جاهلا؟ .

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولاً:

لسنا ندري حقيقة المقارنة والمفاضلة بين "حسي" و "معنوي"، فكيف يقول المجيب إن "اللغة" - وهي شيء معنوي، ليس بذات - أفضل من النبي صلى الله عليه وسلم - وهو شيء حسي، له ذات -؟ .
وعندما تأملنا وجدنا أن الأمر قد يحتمل صورتين، واحدة تتعلق بالسائل، وأخرى تتعلق بالمجيب .
أما التي تتعلق بالمجيب: فهو أنه يحتمل أن "اللغة" تعني: القومية العربية - والظاهر أنهم عرب، وأن الكلام عن اللغة العربية -، وأن النبي صلى الله عليه وسلم يعني "الإسلام"، وهذا الاحتمال يجعل المقارنة والمفاضلة بين شيئين يمكن السؤال والإجابة عنهما .

وأما التي تتعلق بالسائل: فهو أن يكون أراد أن يستفز السائل بالإنكار عليه في تعظيم "لغته" بذكر شيء معظّم عند المسلمين، وهو النبي صلى الله عليه وسلم، فسأله إن كانت لغته أعظم من النبي صلى الله عليه وسلم .
ثانياً:

إن كان الاحتمال الأول هو الصواب: فإن المجيب وقع في الكفر، فالقومية العربية دعوى جاهلية تحمل الكفر، وتطعن في التشريعات الإسلامية، وتفرّق بين المسلمين، وتجمع بينهم وبين غير المسلمين على أساس اللغة العربية، فالعربي الكافر عندهم أقرب لهم وأحب من المسلم الأعجمي! وهذا كفر صريح بالإسلام وتشريعاته .

قال شاعر القومية: فخري البارودي:

بلادُ العربِ أوطاني من الشام لبغدان
ومن نجدٍ إلى يَمَنٍ إلى مصرَ فتَطوان
فلا حدَّ يُباعدنا ولا دينٌ يُفرّقنا
لسانُ الضادِ يجمعنا بغسانٍ وعدنان

سئل الشيخ عبد العزيز بن باز - رحمه الله -:

ما رأيكم في الدعوة إلى القومية التي تعتقد أن الانتساب إلى العنصر ، أو اللغة مقدّم على الانتساب إلى الدين ، وهذه الجماعات تدعي أنها لا تعادي الدين ولكنها تقدم القومية عليه ، ما رأيكم في هذه الدعوى ؟ .
فأجاب :

هذه دعوة جاهلية ، لا يجوز الانتساب إليها ، ولا تشجيع القائمين بها ، بل يجب القضاء عليها ؛ لأن الشريعة الإسلامية جاءت بمحاربتها والتنفير منها ، وتفنيدهم شبههم ومزاعمهم والرد عليها بما يوضح الحقيقة لطالبها ؛ لأن الإسلام وحده هو الذي يخلد العروبة لغة ، وأدباً ، وخلقاً ، وأن التنكر لهذا الدين معناه القضاء الحقيقي على العروبة في لغتها ، وأدبها ، وخلقها ، ولذلك يجب على الدعاة أن يستميتوا في إبراز الدعوة إلى الإسلام بقدر ما يستميت الاستعمار في إخفائه .
ومن المعلوم من دين الإسلام بالضرورة أن الدعوة إلى القومية العربية أو غيرها من القوميات دعوة باطلة ، وخطأ عظيم ، ومنكر ظاهر ، وجاهلية نكراء ، وكيد للإسلام وأهله ، وذلك لوجوه قد أوضحناها في كتاب مستقل سميته : " نقد القومية العربية على ضوء الإسلام والواقع " .
" فتاوى الشيخ ابن باز " (4 / 173) .

والكتاب موجود بكامله في " فتاوى الشيخ ابن باز " (1 / 280 - 318) .
وقال الشيخ - رحمه الله - أيضاً :

إن من أعظم الظلم ، وأسفه السفه ، أن يقارن بين الإسلام وبين القومية العربية ، وهل للقومية المجردة من الإسلام من المزايا ما تستحق به أن تجعل في صف الإسلام ، وأن يقارن بينها وبينه ؟ لا شك أن هذا من أعظم الهضم للإسلام ، والتنكر لمبادئه ، وتعاليمه الرشيدة ، وكيف يليق في عقل عاقل أن يقارن بين قومية لو كان أبو جهل ، وعتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة وأضرابهم من أعداء الإسلام أحياء لكانوا هم صناديدها وأعظم دعائها ، وبين دين كريم صالح لكل زمان ومكان ، دعائه وأنصاره هم : محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبو بكر الصديق ، وعمر ابن الخطاب ، وعثمان بن عفان ، وعلي بن أبي طالب ، وغيرهم من الصحابة ، صناديد الإسلام ، وحماة الأبطال ، ومن سلك سبيلهم من الأخيار؟ لا يستسيغ المقارنة بين قومية هذا شأنها ، وهؤلاء رجالها ، وبين دين هذا شأنه ، وهؤلاء أنصاره ودعائه ، إلا مصاب في عقله ، أو مقلد أعمى ، أو عدو لدود للإسلام ، ومن جاء به ، وما مثل هؤلاء في هذه المقارنة إلا مثل من قارن بين البعر والدر ، أو بين الرسل والشياطين ، ومن تأمل هذا المقام من ذوي البصائر ، وسبر الحقائق والنتائج : ظهر له أن المقارنة بين القومية والإسلام : أخطر على الإسلام من المقارنة بين ما ذكر آنفاً ، ثم كيف تصح المقارنة بين قومية غاية من مات عليها النار ، وبين دين غاية من مات عليه الفوز بجوار الرب الكريم ، في دار الكرامة والمقام الأمين ؟ .
اللهم اهدنا وقومنا سواء السبيل ، إنك على كل شيء قدير .

" فتاوى الشيخ ابن باز " (1 / 320 ، 321) .

وهذان جوابان نافعان من الشيخ رحمه الله حول المقارنة بين القومية العربية والإسلام ، وفي الجواب الثاني حكم من قارن بينهما ، وفيه ذكر أنه " مصابٌ في عقله " ، أو " مقلّد أعمى " ، أو " عدو لدود للإسلام " .
فمن كان يجهل حال القومية : فقد يكون معذوراً ، ومن جهل حال الإسلام واعتقد أن غيره من الأديان والنظم والمبادئ خير

منه : فلا شك في كفره .

ثالثاً:

وإن كان الاحتمال الثاني هو الواقع : فإن السائل يكون أساء في ذكر النبي صلى الله عليه وسلم في المفاضلة ، والمجيب قد أساء أكثر بإجابته السخيفة ، والتي هي كفر في ذاتها ؛ لأن فيها انتقاصاً من النبي صلى الله عليه وسلم ، وإساءة له .
والواجب على المسلم أن يعظم نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأن ينصره ، ويؤيده ، وأن يمنعه من كل ما يؤذيه ، كما يجب عليه توقيره وتكريمه ، والله تعالى ذكر ذلك أنه من صفات المؤمنين ، وذكره ثانياً أمراً به المسلمين .
قال تعالى : (فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) الأعراف/ من الآية 157 .
وقال تعالى : (إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً . لَتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً) الفتح/ 8 ، 9 .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - :

و من ذلك : أن الله أمر بتعزيـره فقال : (وتعزّروه وتوقروه) الفتح/ 9 ، والتعزير : اسم جامع لنصره ، وتأييده ، ومنعه من كل ما يؤذيه .

والتوقير : اسم جامع لكل ما فيه سكينه ، وطمأنينة ، من الإجلال والإكرام ، وأن يعامل من التشريف ، والتكريم ، والتعظيم بما يصونه عن كل ما يخرجـه عن حدّ الوقار .
" الصارم المسلول " (1 / 425) .

وليس تعظيمه وتوقيره مختصاً بحياته صلى الله عليه وسلم ، بل وبعد مماته .

قال القاضي عياض - رحمه الله - :

واعلم أن حرمة النبي صلى الله عليه وسلم بعد موته ، وتوقيره ، وتعظيمه : لازم ، كما كان حال حياته ، وذلك عند ذكره صلى الله عليه وسلم ، وذكر حديثه ، وسنته ، وسماع اسمه ، وسيرته ، ومعاملته آله ، وعترته ، وتعظيم أهل بيته ، وصحابته .
" الشفا في أحوال المصطفى " (2 / 40) .

وقد نهى الله تبارك وتعالى المسلمين أن ينادوا النبي صلى الله عليه وسلم باسمه المجرد كما يفعلونه مع بعضهم ، وهذا من أوجه تعظيمه صلى الله عليه وسلم .

قال تعالى : (لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) النور/ 63 .

قال الضحاك عن ابن عباس : كانوا يقولون : يا محمد ، يا أبا القاسم ، فنهاهم الله عز وجل عن ذلك ؛ إعظاماً لنبيه صلوات الله وسلامه عليه ، قال : فقالوا : يا رسول الله ، يا نبي الله . وهكذا قال مجاهد ، وسعيد بن جبـير .
وقال قتادة : أمر الله أن يهاب نبيه صلى الله عليه وسلم ، وأن يُبجل ، وأن يعظم ، وأن يسود .

وقال مقاتل بن حيان : لا تُسمّوه إذا دعوتـوه : يا محمد ، ولا تقولوا : يا ابن عبد الله ، ولكن شرفوه فقولوا : يا نبي الله ، يا رسول الله .

وقال مالك عن زيد بن أسلم : أمرهم الله أن يشرفوه .

هذا قول ، وهو الظاهر من السياق ، كما قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا) البقرة/104 ، وقال : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) إلى قوله : (إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم) الحجرات/2-5 .

فهذا كله من باب الأدب في مخاطبة النبي صلى الله عليه وسلم ، والكلام معه ، وعنده ، كما أمروا بتقديم الصدقة قبل مناجاته .

" تفسير ابن كثير " (6 / 88 ، 89) .

وقد توعد الله تعالى من رفع صوته على نبيه بذهاب عمله وبطلانه .

قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ) الحجرات/2 .

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي - رحمه الله - :

وهذا أدب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في خطابه ، أي : لا يرفع المخاطب له صوته معه فوق صوته ، ولا يجهر له بالقول ، بل يغض الصوت ، ويخاطبه بأدب ولين ، وتعظيم وتكريم ، وإجلال وإعظام ، ولا يكون الرسول كأحدهم ، بل يميزه في خطابهم ، كما تميز عن غيره في وجوب حقه على الأمة ، ووجوب الإيمان به ، والحب الذي لا يتم الإيمان إلا به ، فإن في عدم القيام بذلك محذوراً ، وخشية أن يحبط عمل العبد وهو لا يشعر ، كما أن الأدب معه من أسباب حصول الثواب ، وقبول الأعمال .

" تفسير السعدي " (ص 799) .

وقد أجمع أهل العلم على وجوب قتل من سب الرسول صلى الله عليه وسلم ، أو عابه ، أو انتقص من قدره صلى الله عليه وسلم ، سواء بالتصريح أو الإشارة .

قال القاضي عياض - رحمه الله - :

اعلم وفقنا الله وإياك أن جميع من سب النبي صلى الله عليه وسلم ، أو عابه ، أو ألحق به نقصاً في نفسه ، أو نسبه ، أو دينه ، أو خصلة من خصاله ، أو عرّض به ، أو شبّهه بشيء على طريق السب له ، أو الازدراء عليه ، أو التصغير لشأنه ، أو الغض منه ، أو العيب له : فهو سابٌّ له ، والحكم فيه حكم السابِّ ، يقتل ، وكذلك يُعاقب بالقتل من لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو دعا عليه ، أو تمنى مضرّة له ، أو نسب إليه ما لا يليق بمنصبه على طريق الذم ، أو عبث في جهته العزيزة بسخف من الكلام ، وهجر ، ومُنكر من القول وزور ، أو عيّره بشيء جرى له من البلاء والمحنة ، أو نقص من قدره ببعض العوارض البشرية الجائزة والمعهودة لديه .

وقد انعقد على هذا إجماع العلماء ، وأئمة الفتوى ، من لدن صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإلى يومنا ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

" الشفا بتعريف حقوق المصطفى " (2 / 214) .

رابعاً:

الأقوال والأفعال التي تخرج صاحبها من الإسلام يستوي فيها حكم الجاد والمازح والمستهزئ. قال الله تعالى : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ * لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ) التوبة: 65-66

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله :

" و هذا نص في أن الاستهزاء بالله و بآياته و برسوله كفر فالسب المقصود بطريق الأولى و قد دلت هذه الآية على أن كل من تنقص رسول الله صلى الله عليه و سلم جادا أو هازلا فقد كفر "

" الصارم المسلول " (1/37)

فانصح – أيها السائل الكريم – هذا الرجل ، وخوفه من الله عز وجل ، وبين له شناعة ما قال ، وان دين الله تعالى ليس محلاً للجدال والخصام ، أو السخرية والاستهزاء ، وأعلمه ما يجب عليه من التوبة الصادقة إلى الله عز وجل ، والندم على ما بدر منه والاستكثار من الخيرات ، عسى الله أن يهديه ويعفو عنه .

والله أعلم